

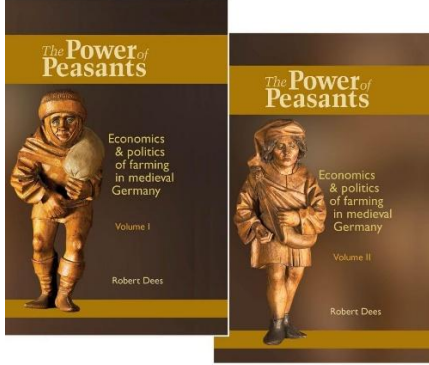


شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

مراجعة كتاب

مراجعة كتاب



روبرت ديز، * قوة الفلاحين: الاقتصاد والسياسة في الزراعة في ألمانيا في العصور الوسطى

المراجع: أوزانكان بوزكورت**
ترجمة: مصباح كمال***

روبرت ديز. *قوة الفلاحين: الاقتصاد والسياسة في الزراعة في ألمانيا في العصور الوسطى*. دار النشر كومون برس، 2023، عدد الصفحات 1,794 . \$40 دولارًا أمريكيًا (غلاف ورقي)، رقم ISBN 978-1737481058.

Robert Dees. *The Power of Peasants: Economics & Politics of Farming in Medieval Germany*. Common Press, 2023. 1,794 pp. \$40.55 (softcover), ISBN 978-1737481058.
Reviewed for EH.Net by Ozanacan Bozkurt, Ege University.

نشر روبرت ديز، مؤلف كتابي تاريخ موجز لإنجلترا: 4000 قبل الميلاد – الأمس مالتوس¹، كتابه الأخير *قوة الفلاحين: الاقتصاد والسياسة في الزراعة بألمانيا في*

¹ يقدم كتاب خدعة مالتوس *The Malthus Fraud* قراءة نقدية قصيرة لكنها شديدة التركيز لأطروحة توماس مالتوس في كتابه *Essay on the Principle of Population* (1798) ينطلق ديز من السياق السياسي-الاجتماعي لنهاية القرن الثامن عشر، حيث أثارت الثورات الأميركية والفرنسية مخاوف النخب من صعود الطبقات العاملة، فكان لا بدّ - في رأيه - من "هجوم أيديولوجي مضاد" تحمّل فيه الطبقات الفقيرة مسؤولية بؤسها. يرى ديز أن مالتوس لم يقدم نظرية علمية، بل عقيدة دينية-سياسية تُلقى اللوم على الفقراء بزعم "الإفراط في الإنجاب"، بينما تتجاهل تمامًا بنية النظام الاقتصادي نفسه. ويؤكد أن لا مثال تاريخيًا واحدًا يدعم فرضية مالتوس حول العلاقة بين النمو السكاني والفقير، وأن استمرار حضورها في الخطاب الاقتصادي



مراجعة كتاب

العصور الوسطى. يركز الكتاب على الاقتصاد السياسي لريف جنوب ألمانيا بين عامي 1450 و1650، ويدرس العلاقات المعقدة بين الفلاحين والإقطاعيين. ويشير الكتاب، في هذا السياق، إلى أن فهم هذه القضية فهمًا كاملاً لا يمكن أن يتم بمعزل عن مسار تطورها. لذا، يضع الكتاب النقاش في سياق تاريخي أوسع يتجاوز هذه الحدود الزمنية والمكانية المحددة.

يتألف الكتاب من مجلدين، كل منهما يضم ثلاثة أجزاء وسبعة عشر فصلاً، باستثناء المقدمة والخاتمة. يقدم الجزء الأول، بعنوان "الحضارة في شمال أوروبا"، سردًا تاريخيًا يمتد من الإمبراطورية الرومانية إلى فترة التدهور الاقتصادي السريع في خمسينيات القرن الثالث عشر، وصولاً إلى الانهيار نتيجة **الطاعون الأسود² وحرب المائة عام³**. يجادل ديز بأن سقوط الفلاحين الأحرار، والحملات العسكرية المتواصلة، واقتصاد العبودية الذي ساد الجمهورية، كانت من أسباب انهيار روما. إن استيلاء الضياع الكبرى التي تدار بالعبيد على أراضي الفلاحين صغار الملاك أدّى إلى إبطاء التقدّم، وأضعف روح الولاء والإرادة في الدفاع عن الدولة (ص 70، 87، 114). علاوة على ذلك، فاقمت الضرائب المفروضة خلال حكم **ديوكليتيان⁴**

والسياسي المعاصر يعود إلى فائدتها في حماية الوضع القائم لا إلى قوتها التفسيرية. يصف ديز أطروحة مالتوس بأنها دوغما ذات طابع لاهوتي تُعَلّف نفسها بطلاء "علمي"، ويبين - عبر شواهد تاريخية وبيانات - أن مالتوس لم يقدم برهاناً حقيقياً، بل استخدم خطاباً يبزر معاناة الفقراء ويمنع أي إصلاح جذري. الكتاب موجز، حاد النبرة، ومصاغ بلغة مباشرة، ويُعدّ - بحسب المراجعات - تنفيذاً "سريعاً، موثقاً، وغير جاف" للمالتوسية ولتأثيرها المستمر.

² الطاعون الأسود في أوروبا في القرن الرابع عشر هو الجائحة التي اجتاحت القارة بين عامي 1347 و1351، وتُعدّ من أكثر الكوارث فتكاً في التاريخ البشري. وصل المرض - وهو الطاعون الدبلي Bubonic plague (يتميّز بتورّم مؤلم في العقد للمفاوية يُسمّى الدُّبَل) أساساً - عبر طرق التجارة من آسيا إلى موانئ البحر المتوسط، ثم انتشر بسرعة مذهلة في المدن والريف الأوروبيين. أدّى الطاعون إلى انهيار ديموغرافي هائل؛ إذ قُدّر أنه قضى على ما بين ثلث ونصف سكان أوروبا خلال أربع سنوات فقط، وتسبّب في اضطراب اقتصادي واجتماعي عميق، وانهيار أنظمة العمل، وتغيّر في بنية الإقطاع، وظهور توترات دينية وثقافية واسعة.

³ حرب المائة عام هي سلسلة من الصراعات المتقطعة بين إنجلترا وفرنسا امتدّت من 1337 إلى 1453، ودارت أساساً حول الحق في العرش الفرنسي والسيطرة على الأراضي في فرنسا. تميّزت الحرب بتغيّر التحالفات، وتطوّر أساليب القتال، وظهور شخصيات محورية مثل جان دارك. انتهت بانتصار فرنسي حاسم أدّى إلى طرد الإنجليز من معظم أراضيهم في القارة، ورسخت بدايات الدولة القومية في أوروبا الغربية.

⁴ ديوكليتيان Diocletian هو الإمبراطور الروماني الذي حكم بين 284 و305م، ويُعدّ أحد أهم مُجَدّدي الدولة في أواخر العصر الإمبراطوري. أعاد تنظيم الإمبراطورية بعد عقود من الفوضى عبر إصلاحات إدارية



مراجعة كتاب

Diocletian الأزمة، وعجّلت بالتدهور الاقتصادي، وأجبرت المزارعين على أن يصبحوا "عبيدًا للأرض" (servi terrae)، مما زاد من حدة المشكلة. وقد خاض الجيش الروماني، المؤلف من مرتزقة غير متحمسين، صراعًا ضد القبائل الجرمانية النشطة. بحلول عام 406، شكلت هذه القبائل تحالفات، وبحلول عام 476، تم تدمير الجيش الروماني (الصفحات 124-129، 132-137).

مع انهيار روما، بزغ فجر عهد جديد، إذ نال الفلاحون حريتهم من قيود الإنتاج القائم على العبودية والحكم الاستبدادي. بين عامي 500 و800 ميلادي، شهدت أوروبا الشمالية ثورة زراعية عميقة تضاهي الثورة الصناعية؛ فقد ساهم انخفاض **الريوع** وتزايد الأمن الغذائي في زيادة عدد السكان وانتشار الاستيطان (ص 150). وانتشرت تقنيات مثل طواحين المياه والهواء وأدوات **تسخير الخيول** horse harnesses⁵، التي كانت مهمة في العصر الروماني بسبب وفرة العبيد، انتشارًا واسعًا مع تبني مزارعي العصور الوسطى أنماط حياة مستقرة، ودمجهم الماشية مع المحاصيل، واستخدامهم السماد العضوي للتسميد (ص 193-208، 270). وأدت أساليب الزراعة الأكثر كفاءة⁶ والأدوات الحديدية إلى زيادة الإنتاج أربعة أضعاف بين عامي 800 و1200 ميلادي؛ إذ حقق الفلاحون فائضًا فاق احتياجاتهم الأساسية بنسبة 170%، مما ساهم في ازدهار المدن والطبقة التجارية والصناعات المبكرة كصناعة النسيج (ص 236-239، 273).

وعسكرية واسعة، أبرزها إنشاء نظام التيتراكية Tetrarchy (الحكم الرباعي) لتقاسم السلطة ومنع الانقلابات، وإعادة هيكلة الضرائب والجيش، وإطلاق إصلاحات اقتصادية شملت محاولة ضبط الأسعار. كما ارتبط عهده ببدء أشد موجات اضطهاد المسيحيين قبل اعتناق الإمبراطورية للمسيحية لاحقًا. يُنظر إلى حكمه بوصفه مرحلة مفصلية في انتقال روما من الإمبراطورية الكلاسيكية إلى الدولة المتأخرة ذات البيروقراطية الثقيلة والتنظيم المركزي.

⁵ horse harnesses هي عدة ربط الأحصنة، أي مجموعة الأحزمة والرباطات الجلدية أو القماشية التي تُثبَّت على جسم الحصان لتمكينه من جرّ العربات أو المحاريث أو الأحمال. تتكوّن عادة من الصدرية أو الياقة، والأحزمة الجانبية، واللجام، وأدوات التثبيت التي تنقل قوة الجرّ من الحصان إلى العربة. تُعدّ جزءًا أساسيًا من تقنيات النقل والزراعة قبل العصر الصناعي.

⁶ cropping methods تعني أساليب زراعة المحاصيل، أي الطرق التي يعتمدها المزارعون لتنظيم زراعة الأرض بهدف زيادة الإنتاجية والحفاظ على خصوبة التربة.



مراجعة كتاب

ترافقت هذه الموجة من الازدهار مع مقاومة شرسة من الفلاحين لمحاولات الإقطاعيين الاستيلاء على **الأراضي المشاعة common lands** وإدامة نظام القنانة serfdom عبر المعارك القانونية أو الفرار أو المقاومة السلمية. وفي نهاية المطاف، أدى تخفيف قيود العمل إلى قفزة حضارية هائلة، مما زاد عدد سكان أوروبا عشرة أضعاف في بعض المناطق (ص 229-237، 288). بدأ ركود النظام الإقطاعي وانحداره بعد عام 1250 عندما قام الإقطاعيون بتسييج الأراضي **المشاعة**، التي كانت بمثابة ضمان لحرية الفلاحين، وبالتالي مصادرتها وتحويل الملكية إلى سلعة (ص 349، 350).

على الرغم من أن البنية السردية للكتاب تجعل من الصعب دراسة كل قسم على حدة، فإن الجزء الثاني، "الدورة الثانية"، يعرض الحجج المركزية ويحدد الإطار المنهجي لتحليل ريف جنوب ألمانيا. وخلافاً لما يُشاع في الأدبيات عن "ثبات الربيع"، يُبين ديز، استناداً إلى أدلة أرشيفية، أن ارتفاع **الريوع** والاستغلال كانا العاملين الرئيسيين في حياة الفلاحين في ريف جنوب ألمانيا في أوائل العصر الحديث. وبناءً على ذلك، فبينما زادت الريوع النقدية في شتاينهايم Steinheim أربعة أضعاف، وارتفعت **ضرائب الدجاج** على الأبقان serf chicken taxes⁷ بأكثر من 67 ضعفاً، شهدت رسوم الوصول إلى الأراضي ارتفاعاً هائلاً بنسبة 900% (ص 574). وخلال هذه الفترة، عندما انخفض الإنتاج بنسبة 15%، أدت الزيادة بنسبة 10% في **ريوع** **الحبوب** إلى رفع حصة الربيع من إجمالي المحصول من 17% إلى 23%، مما قلص حصة الفلاح بنسبة 25%. بلغ معدل الاستغلال مستوى استهلك فيه 60% من الإنتاج في السنوات العادية و80% في سنوات المجاعة (ص 581، 689). كما أدى استيلاء الإقطاعيين على الأراضي المشتركة، التي كانت مصدراً للحرية والخصوبة للفلاحين، وتقييدهم لوصولهم إلى الغابات، إلى مزيد من انخفاض الإنتاجية الزراعية. ودفع الارتفاع الكبير في الغرامات، الذي تجاوز خمسة أضعاف، وتزايد عبء الديون (حتى 36% من المحصول)، المزارعين إلى الإفلاس الحتمي وتدهور

⁷ serf chicken taxes ضرائب الدجاج على الأبقان، يُقصد بها نوع من الرسوم العينية التي كان الإقطاعيون يفرضونها على الأبقان في أوروبا الوسيطة، حيث يلزم القنّ بتقديم دجاجة أو أكثر سنوياً لمالك الأرض بدلاً من جزء من العمل أو النقد. كانت هذه الضريبة جزءاً من منظومة الالتزامات الإقطاعية التي تشمل العمل الإجمالي، و**رسوم الزواج**، وضرائب الحصاد. ويُستشهد بها عادة للدلالة على طبيعة الاقتصاد العيني وارتباط الفلاحين الإقطاعيين بواجبات صغيرة لكنها متكررة تُظهر تبعيتهم القانونية والاقتصادية للسيد الإقطاعي.



مراجعة كتاب

الأراضي، مما أدى إلى اندلاع الأزمة الكبرى في أوائل القرن السابع عشر (ص 647، 689-690).

في الوقت نفسه، ازداد عبء الديون على الفلاحين. فكما هو الحال في بافاريا، على سبيل المثال، مع ارتفاع الضرائب بنسبة 2,200%، وجدت المدن والأسر نفسها عالقة في دوامة ديون (ص 759-760). ولم يقتصر تحكّم الإقطاعيين بالفلاحين على الديون فحسب، بل شمل أيضاً السيطرة على عمل الفلاحين من خلال وسائل مثل مصادرة حقوق الميراث وفرض نظام القنانة كشرط أساسي لامتلاك مزرعة (ص 863-867). علاوة على ذلك، استولى الإقطاعيون على العمل بشكل كامل من خلال فرض حظر الزواج، والاتجار بالبشر، وزيادة التزامات السخرة *corvée obligations*؛ كما رسّخوا سيطرتهم الأيديولوجية من خلال إخضاع التعليم للدين واستخدام الأعمال الخيرية كأداة للوصم الاجتماعي (ص 875، 947، 980).

يتناول الجزء الثالث بشكل نقدي المناهج البديلة، مقدماً رؤى إضافية حول الموضوع. من بينها نظرية توماس مالتوس السكانية. فبحسب ديز، على الرغم من أن البيانات التاريخية تُظهر أن الأزمات لم تنجم عن الاكتظاظ السكاني، بل عن جشع الإقطاعيين وركود علاقات الإنتاج، إلا أن الأسباب الأيديولوجية تحول دون مواجهة تفسير مالتوس (ص 1296، 1311-1317). وبالمثل، في ألمانيا خلال القرن السادس عشر، دُحضت فكرة تراجع نظام القنانة والمناهج التي تتجاهل الصراع بين الفلاحين والإقطاعيين، بأدلة على زيادة حقيقية أربعة أضعاف في **رسوم الزواج**⁸، وزيادة حقيقية عشرة أضعاف في ضرائب التركات، فضلاً عن أدلة تدعم فترة ثانية من القنانة عقب حرب الفلاحين الألمان عام 1525 (ص 1395-1396). ويؤكد الكتاب أيضاً أن التفسيرات القائمة على **العصر الجليدي الصغير Little Ice Age**⁹ قابلة للنقاش.

⁸ كانت رسوم الزواج *marriage fees* في النظام الإقطاعي الأوروبي أحد الالتزامات المفروضة على الأبقان، حيث يُلزم القنّ بدفع مبلغ مالي أو تقديم عطاء عيني لسيدّ الإقطاعي عند رغبته في الزواج. لم تكن هذه الرسوم مرتبطة بتكاليف دينية أو مدنية، بل كانت أداة للسيطرة القانونية والاقتصادية على الفلاحين، إذ لا يُسمح للقنّ بالزواج – خصوصاً إذا كان الزواج من خارج ضيعة السيد – إلا بعد دفع هذه الرسوم. تُعدّ هذه الممارسة مثلاً واضحاً على التبعية الشخصية التي ميّزت علاقة القنّ بسيدّه في العصور الوسطى.

⁹ مرحلة باردة نسبياً امتدّت تقريباً من القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، تميّزت بانخفاض ملحوظ في درجات الحرارة في أوروبا وأمريكا الشمالية، مما أدى إلى مواسم زراعية أقصر، ومجاعات متكررة، واضطرابات اجتماعية واقتصادية.



مراجعة كتاب

لم تكن التقلبات الطفيفة في درجات الحرارة (مثل 0.23 درجة مئوية) بين عامي 1300 و1900 السبب الرئيسي للانهييار الاجتماعي والاقتصادي (ص 1412-1414)؛ لم يكن الانهييار الزراعي، وانخفاض عدد السكان، والكوارث مثل **حرب الثلاثين عامًا** في ألمانيا¹⁰ ناتجة عن الظروف الجوية؛ بل كانت ناجمة عن تشديد نظام القنانة، وزيادة مطالب الإيجار من قبل الإقطاعيين، وسياسات نزع الملكية (ص 1408، 1443).

إضافةً إلى سهولة أسلوبها ولغتها، تكمن أهم إسهامات هذه الدراسة الشاملة والمفصلة في إظهارها لدور الفلاحين الفاعل عبر نطاق زمني وجغرافي أوسع، لا سيما في ريف جنوب ألمانيا خلال العصور الوسطى وبداية العصر الحديث. والأهم من ذلك، أنها لا تقتصر على لحظات التمرد والمقاومة التي "اندلعت فيها ثورات الفلاحين ثم انطفأت"، بل تكشف عن دورهم المحوري في النمو الاقتصادي العام وتطور الحضارة.

باختصار، يشجع كتاب **قوة الفلاحين: الاقتصاد والسياسة في الزراعة بألمانيا في العصور الوسطى** على إعادة النظر في الأثر التحويلي للفلاحين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الأوروبي، فضلاً عن أهمية الصراعات بين مختلف الفاعلين. يتجاوز الكتاب التاريخ الاقتصادي لريف جنوب ألمانيا بتقديمه سرداً شاملاً غير مألوف في الأدبيات الموجودة. إنه عمل جدير باهتمام أوسع ونقاش أكاديمي. ■

* روبرت ديز هو كاتب وباحث اقتصادي-تاريخي، اشتهر بعمله الأكبر *The Power of Peasants: Economics and the Politics of Farming in Medieval Germany*، والذي يُعدّ كتاب *Malthus Fraud* مقتطفاً منه. يركّز ديز في أبحاثه على الاقتصاد السياسي، تاريخ الفلاحين، ونقد الأيديولوجيات الاقتصادية التي تُستخدم لتبرير عدم المساواة. يتميز أسلوبه بالوضوح والصرامة النقدية، ويجمع بين التحليل التاريخي والاقتصادي مع موقف نقدي من الخطابات التي تُلقى اللوم على الطبقات العاملة. كما تُظهر مراجعات كتبه أنه يكتب بلغة قوية، موثقة، وموجهة للباحثين والطلاب والمهتمين بتاريخ الفكر الاقتصادي. ■

¹⁰ حرب الثلاثين عامًا (1618-1648) نزاع ديني-سياسي مدمر اندلع داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، خصوصاً في الأراضي الألمانية، بين القوى البروتستانتية والكاثوليكية، وانتهى بصلح وستغاليا بعد أن خلف دماراً واسعاً وانهيياراً سكانياً واقتصادياً عميقاً.



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

مراجعة كتاب

** أوزانكان بوزكورت <https://ege.academia.edu/OzancanBozkurt> طالب دكتوراه في قسم التاريخ الاقتصادي بجامعة إيجة، إزمير، Ege University, İzmir، تركيا. يركز بحثه للدكتوراه على علاقات الإنتاج الريفي في الإمبراطورية العثمانية خلال أوائل العصر الحديث.

Copyright (c) 2026 by EH.Net. All rights reserved.

*** مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

يمكن قراءة النص الإنجليزي للمراجعة بالنقر على هذا الرابط:

[The Power of Peasants: Economics and Politics of Farming in Medieval Germany – EH.net](#)

حقوق نشر الترجمة العربية محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.

<http://iraqieconomists.net/ar/>